مكيدة الرواية

برهان الخطيب يتحدث عن تجربته

محمد سعيد الريحاني*

برهان الخطيب

برهان الخطيب واحد من أبرز الروائيين العراقيين، ولكنه واحد من أكثرهم إثارة للجدل أيضا. إنما ليس في أثره الروائي الذي يشمل روايات ذائعة الصيت مثل "الجنائن المعلقة" و"شقة في شارع أبي نؤاس"، "الجسور الزجاجية"، "سقوط سبرطة"، "ضباب في الظهيرة"، و"خطوات الى الأفق البعيد"، بل في الموقف السياسي منه، وذلك بسبب المسافة التي وضعها بينه وبين جميع الأنظمة والأحزاب والتيارات السياسية. ولكن الأديب ظل هو نفسه، باحثا عن نسيجه الإبداعي الخاص. وهنا حوار معه.

× كيف يكتب الخطيب؟ ما مقدار الصدق الحياتي في أعماله؟

– الصدق الحياتي غير الصدق الفني طبعا، على أي حال تحتاج الرواية مكيدة، وأنا لصدقي هنا وهناك لا مكائد عندي، فهل أصلح لأكون بطل رواية صادقة برأيك؟ ربما هناك العديد من المكائد حولي، الكتابة عنها تتطلب معرفتها جيدا، من أين لي الإلمام بها توثيقيا، إذن احتاج التخيل لإكمال الناقص من الصورة، هكذا اتحول إلى بطل عادي، نصفه متخيل ونصفه حقيقي، لا الروائي نفسه الذي تقترح الكتابة عنه. يمكن طبعا ابتكار مكيدة حول الروائي، وكتابة رواية عنه، ستكون عادية في هذا الحال، اطمح لرواية استثنائية دائما، دع عنك أن كتابة رواية بمقترحك هذا، غير الغريب عني لأني تأملته سابقا، وتكلمت فيه مع صديق بل صديقة، يضطرني لتصوير الموضوع بعيني الخاصة، من بُعد واحد، لا أريد هذا، لا يتيح لي تفحص الموضوع بعيون عدة شخصيات من عدة جهات، كما في روايتي عادة وصولا إلى صورة مجسمة بأكثر من بُعد، لحقيقة روائية هي أقرب إلى الحقيقة الموضوعية.

الحقيقة الذاتية تباعد بين الناس، تقدم رؤية على حساب رؤية أخرى، الحقيقة الموضوعية أو القريبة لها تقربهم، تقدم العالم باعتباره مكانا للجميع، لا لفرد واحد أو مجموعة، هكذا تساعد القارئ في التخلص من اغتراب عن هذا العالم. الجانب الفني هنا يمتزج ترى بجانب أخلاقي للعمل الإبداعي. بل هنا وبهذا يرتقي العمل الفني ليكون عملا إبداعيا بحق. فأنا في هذا الحال لا أسرد ما حدث فقط بل أعرض أيضا النقص والاختلاف في ما حدث وحوله. طبعا هناك كتاب ونقاد لا يولون بناء الرواية كل هذه الأهمية، يعتبرون كتابتها مجرد لعبة، لعبة فنية طبعا لها اصول، تخبرنا عن شئ حدث بطريقة مقنعة جميلة، أنا لا أكتفي بهذا، أريدها أن تغير الناس، لا نحو يسار أو يمين، بل إلى الأمام.

الكلام في عدم ضرورة الخلفية الاجتماعية للرواية، واهمية النظر على المنظور، واولية نقض النفس على نقض الغير، معقول ، قديم، استهلكناه في الستينات، إنما تبقى الرواية ليست حيزا لإفراغ الذات حسب، بل مرآة للوجود كله، هكذا أراها ببساطة، الوجود بشقيه الفيزياوي والميتافيزياوي، من هنا تبنيت مبكرا بعد تجلى ذلك في روايتي الأولى (ضباب في الظهيرة) وهي اقصوصة، قبلها مجموعة (خطوات..) رؤية مزدوجة للقصة والرواية انتقلت لتلون افكاري عن السياسة بعد حين، تستوعب رؤى آخرين. لعل التقاء الوجودية والماركسية سابقا في ذهني سمح لي ذلك، حتى ذابت الفلسفات والمدارس الفنية وجعلني ذلك اكتب في حرية بلا ايديولوجيا، كنت كشاعر حفظ دواوين العرب ثم نساها وبدأ يكتب شعره.

التنويع ضروري طبعا، أعود إلى ضمائر السرد، ليس عبثا وجدت متنوعة، هي أدوات ينبغي إجادة استعمالها، وإلا جرحتنا، استعمالها أبعد عن أن يكون عشوائيا. تكنيك السرد متنوع، يتضمن العديد والمختلف من أنواع المداخلات غير المباشرة عادة للإحاطة بالمشهد الروائي عريضا وتقديمه مجسما للقارئ، ضمن حدود منطق صارم يسمح باستخدام هذه الكلمة مثلا بالذات لا غيرها، ولو كان السرد يجري في موضوع غير صارم تماما. المباشرة حين تكون مبررة، وفي وقتها، غير مباشرة في الحقيقة، تدخل ضمن السياق الفني أيضا. والتركيز على هذا التفصيل أو ذاك جزء من رؤية عامة لموضوع الرواية، لا ينبغي أن يحدث مصادفة.

استخدام الضمائر أساس عملية السرد، يخضع لتصفية تمرر هذا التعبير ولا تمرر ذاك، هناك فرق كبير حين تستخدم ضمير الغائب أو المخاطب أو الضمير الأول، كل من هذه الضمائر يتضمن نوعا من سارد، حسب الموضوع الذي تكتب عنه، قد يكون هناك أكثر من سارد لحدث رواية لكن يجب أن يكون هناك روائي واحد يمرر سرد الاخرين من خلاله، ولا بأس أن يتشارك روائيان بسرد ما يسرده آخرون، لكن يجب ان نعرف دائما أين هو الروائي وأين هو شخصية أو شخصيات الرواية. مقياس فنية السرد أو عدمه نستخرجه من داخل العمل الروائي ونضعه خارجه ونبدأ الالتزام به وقياس كيف يجب أن يتدفق السرد.

ما تفضلت به عن تكسير المرايا، والحديث مباشرة عن مشوار شخصي وأدبي لي أو لغيري يخلق رواية معينة، بمواصفات معينة، لا يهشم التنظير الروائي، هذه أيضا سوف تكون مشروطة بقواعدها الخاصة. الحق كأنك تسللت إلى مكتبي وعرفتَ ما أفعله حاليا، اعترف لك واتمنى أن لا يكون في هذا شؤم لا أؤمن به على الرواية، لا أحب الكلام عن رواية قبل الانتهاء منها، أكتب الآن رواية من هذا النوع. لكن، لو امكنك التسلل إلى مكتبي واكتشاف ما افعله لا أدعك تتسلل إلى عقلي لمعرفة ما أفكر فيه لهذه الرواية، وماذا سوف يكون فيها. ليس كل ما يُعرف يمكن الكتابة عنه، فهذا يعني قبل كل شئ مغادرة حدود الفن الروائي إلى الصحافة، وهذه تركتها من زمان، كما لا أريد خيانة الرواية، تذكر ما قالته مارلين، الإغراء فن اخفاء ما يُراد إظهاره، هكذا الرواية، لا يجب أن تكشف كل شئ حتى لو كان بطلها هو الروائي نفسه الذي يعرف الكثير لكنه لا يكشف كل ما يعرف، خوف تجاوز حدود الفن لا من شئ آخر.

ما اكتبه الآن إذن قد يصلح فصلا لهذه الرواية المقترحة منك، بل وأنت بطل فيها ولا تدري.

× تجربتك مع النشر، كيف تقيمها؟

– هذا موضوع يمكن كتابة رواية خاصة عنه، فيه الكثير من المرارة والضحك والحزن والخيبة والفرح، مرة قلت لصحافي سويدي سألني عن هذا الموضوع إذا كنت تجدني استحق جائزة كروائي، وأنا غير منشغل بها حقا، فأنا مؤكدا استحق جائزة كناشر، وكنت امزح طبعا، لأني أكثر الكتاب في العالم تعذب ربما من نشر الكتب، ليس في هذا مبالغة، السبب: ابتعادي عن الاحزاب والدول ومطابعها، التي خربت بالسياسة كما خربت في الأدب، حتى دور النشر الخاصة تنشر حسب مزاج لا تحزره، لا علاقة له بالجودة، أي واحد يستطيع دفع مبلغ في إمكانه نشر كتاب له الآن، كان في إمكاني أيضا أن أفعل ذلك، لكن ما كان ذلك ليشعرني أني كاتب حقا. هذا يعني: فوق حقه دقه. مقابل جهد سنوات ادفع لتسوق نفسك. لذلك كانت سعادتي كبيرة حين نشرت لي مؤسسات محترمة جدا بعض رواياتي دون دفع مني، مقابل ذلك عانيت كثيرا من نشر روايات أخرى لي، لم تسمح لي الظروف لدفعها إلى مطبعة، إذا نجحت في ذلك جرت حرب وضيعت المنشور، جاء تسفير وضيع المخطوط المجهد بكتابته، خسارات جمة لحقتني من حرفة الأدب هذه. إنما وأنا أنظر إلى كتبي اليوم اشعر كأن ابنائي بعد السهر والقهر اصبحوا اطباء ومهندسين أمامي.

ليس من عادتي الشماتة لكن فرحت حين حُجبت جائزة محترمة كبيرة عن دور النشر، لأنها لا تستحق التقدير كثيرا، القائمون بها معظمهم لا يختلفون عن قصابين، العفيف فيهم قلة ضائعة بين كثرة خبصت الأدب درجة أصبحوا معها من أسباب تأخره في منطقتنا، رغمه اشعر بأسف عليهم، هم أيضا تجار يريدون الكسب والعيش في صورة أفضل.

مرة كدت أقتل تحت ثقل عربة الكتب حين انزلقت نحوي وهصرتني بالجدار، سمعت أضلاع قفصي الصدري تطقطق، وهي تسحقني على الجدار بطيئا، قوة هرقلية لا أدري من أين انبعثت فيّ جعلتني أقاومها حتى انقذت، كان عليها أكثر من ألفي نسخة من روايتي (نجوم الظهر) قلت لنفسي حينه في حالة اختناق حد موت تقريبا: هل كتبت نجوم الظهر لأريها للناس أم لأريها لنفسي! تكلمت عن الموضوع في وقت سابق، لا أجد حماسا كبيرا للكلام فيه بعيدا.

فوضى النشر في منطقتنا وعشوائيته من فوضى أوضاعه السياسية، لكن ثمة تغيرات ايجابية تحدث في مضمار نشر الروايات، تخصيص جوائز لها سيرغم الناشرين على طبع الأعمال الجيدة أملا في كسب لو فازت.

× من خلال تجربتك مع القراء، ما هي أقوى ملاحظة اخترقت مسامعك ووجدانك من قارئ من القراء؟ وما هي أطرف ملاحظة تلقيتها من جمهور قراء تكتب له؟

– الحقيقة فوجئت أكثر من مرة بملاحظات قراء توقعت منهم الألمعية لكن لا إلى تلك الدرجة من النفاذ إلى ما تحت النص، لا استهين بهم طبعا لكن حرفية ملاحظاتهم استوقفتني، لكل مهنة عالمها، كما تعرف. قد يتوقف خياط عند موضع من رواية ويتوقف غيره، مناضل أو شرطي أو امرأة متحررة عند موضع آخر منها حسب الاهتمام والخبرة والذكاء. لما جاءت ملاحظاتهم خارج نطاق اهتماماتهم أو ضمنها لامست تفاصيل خفية تحت السطح جعلني ذلك أشك في مصدر الملاحظة، كأن يكون مثلا سمعها المتكلم أو قرأها في مكان وجاء بها إلي كأنها من عنده. شككت إن أحد النقاد أو المتتبعين لما اكتبه وضع على لسانهم تلك الملاحظة أو غيرها رغبة في سماع رد فعلي خاصة لصدورها من غير متخصص. سألت أحدهم مرة عن كيفية توصله لما قال، ابتسم، كأني اكتشفت لعبته. آخر أكد من عنده. واحد اعترف بأن فلان اخبره أن ينقل لي الرأي الذي ذكره. عموما ما وصلني قد يبدو من باب الاطراء، وجدت فيه دلالات لما يمكن أن تلعبه رواية في حياة مجموعة من الناس. ملاحظة أصلية باقية في ذاكرتي عن أخي احسان، قال: بغداد صاروا يقسمونها إلى شمال وشرق وجنوب وشمال في محطات الإذاعة والتلفزيون بعد صدور روايتك (ليلة بغدادية). فيها حرصت فعلا على تثبيت احداثيات للمدينة بهذه الطريقة، لإعطاء صورة واضحة للقارئ عما يحدث في الرواية. سابقا كانت مناطق بغداد تذكر حسب تسمياتها دون تحديد موقعها من مركزها.

أيضا شارع المتنبي العريق المعروف، كان يسمى شارع المكتبات أو شارع الكتب بل وشارع السراي، سوق السراي جواره، اكثر من تسمية غير رسمية له، عام 1966 نشرت قصة قصيرة عنوانها (الموت والناس) ذكرت فيها بأن الشارع اسمه شارع المتنبي، لا أذكر بالضبط لماذا فعلت ذلك، عام 2003 قال لي احدهم لولا قصتك المنشورة في الستينات ما ثبت اسم الشارع على المتنبي. كل واحد أسماه على هواه، هو شارع قصير بلا تسمية رسمية، الآن المتنبي أشهر شارع في بغداد.

وفي ديرة عرب بعيدة، كانت مسرحا لروايتي (نجوم الظهر) عن أحداث الخمسينات، قال لي أحد اقاربي لولا روايتك كنا نسينا الكثير من تفاصيل حياتنا، بعد قراءتنا الرواية ارجعنا المضيف إلى مكانه، عادت بعض الكلمات إلى حياتنا بعد نسيانها.

آخر، شاعر عراقي، كتب إليّ أنه لولا هذه الرواية ما كان عرف ماذا حدث في بغداد القديمة.

لكن أقوى الملاحظات التي اخترقت مسامعي حقا صدرت عن مثقف متنور حامل شهادة دكتوراه، قال: مَن يقرأ رواياتك يصير أذكى. آخر مكلوم من مشاكل الغربة قال: روايتك سقوط سبرطة كتبتها عني؟ غيره قال كنا في مظاهرة امام السفارة العراقية وخرج لنا القنصل يكلمنا حاملا مسبحة بيد وكأسا باليد الأخرى فقلنا هذا قرأ رواية برهان الخطيب وخرج يطبق برؤوسنا، وإذا به يتكلم بالضبط ما قلتَه في روايتك، فجاوبناه نحن أيضا بما كان مكتوبا فيها.

منذ البداية قررت أن لا تكون لي علاقة مع أية سلطة، مع أي حزب، لأكتب بحرية، والتزمت بهذا الشرط كل حياتي الإبداعية

* كاتب عراقي